مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية | المجلد 15 العدد 2 (السداسي الأول 2023م) ص. 43-74

# رعاية الفاصلة القرآنيَّة: أساليبها والأغراض المقترنة بها من خلال تفسير ابن عاشور

# The Quranic Fasila' care: its methods and the purposes associated with it, through the interpretation of Ibn Ashour.

د. الطيب صفية [1*]، أ.د. نورة بن حسن [2]

[1] جامعة باتنة1، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر) tayeb.sefia@univ-batna.dz

[2] جامعة باتنة 1، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر) noura.benhacene@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2023/03/31 تاريخ القبول: 2023/05/18 تاريخ النشر: 2023/06/18

**ملخص:**

يتناول هذا البحث موضوع رعاية الفاصلة القرآنيَّة. وتكمن أهمِّيَّة هذا الموضوع في أنَّ فواصل القرآن أحد عناصر جمالية النَّصِّ القرآنيِّ وبلاغته وإعجازه.

والإشكاليَّة الَّتي نصبوا إلى معالجتها تتمثَّل في مدى إمكانيَّة الوقوف على أساليب القرآن في رعاية الفواصل، ومدى استقلال غرض رعاية الفاصلة، من خلال تلك الأساليب، عن الاقتران بأغراض أخرى. وقد اخترنا كأرضيَّة لهذه الدِّراسة تفسير التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور؛ لعنايته بفنون البلاغة في القرآن الكريم.

ونستهدف من هذا البحث الكشف عن تلك الأساليب، وعن الأغراض المقترنة برعاية الفاصلة من خلالها. وأمَّا المنهج المتبع لتحقيق الأهداف فالمنهج الوصفيُّ مع توظيف آليات الاستقراء والتحليل والاستنباط.

ومن النَّتائج المتوصَّل إليها: تنوُّع أساليب رعاية الفاصلة إلى ستَّة أساليب، وأنَّ الغالب فيها اقتران غرض رعاية الفاصلة بأغراض أخرى لغويَّة أو معنويَّة.

**الكلمات المفتاحية:** الفاصلة؛ الفواصل؛ القرآنية؛ ابن عاشور؛ التَّحرير والتَّنوير.

* المؤلف المرسل

**Abstract:**

This research deals with the issue of caring for the Quranic Fasila. The importance of this subject lies in the fact that the Fasilas of the Qur'an are one of the elements of the aesthetic, eloquence, and miraculousness of the Qur'anic text.

The problem that we aim to address is the extent to which it is possible to stand on the Qur'an's methods of caring for Fasilas, and the extent to which the purpose of caring for Fasilas, through these methods, is independent of association with other purposes. We have chosen as a basis for this study the interpretation of Al-Tahrir and Al-Tanweer of Ibn Ashour; because of his interest in the arts of rhetoric in the Holy Quran.

Through this research, we aim to reveal those methods, and the purposes associated with Fasila care through them. As for the approach used to achieve the objectives, it is the descriptive approach with the use of induction, analysis and deduction mechanisms.

Among the results reached: the diversity of the methods of caring for the Fasila into six methods, and often in these methods, the Fasila care purpose is associated with other linguistic or moral purposes.

**Keywords:** The Fasila; The Fasila care; The Qur'an; Ibn Ashour; Al-Tahrir wa Al-Tanweer.

**مقدِّمة:**

من ظواهر القرآن اللَّافتة للانتباه ظاهرة لغويَّة صوتيَّة بلاغيَّة أعجبت فصحاء وبلغاء العرب وأذهلت أصحاب الذَّوق والأدب، فما وجدوا لها تصنيفا، أَمِن سَجع النثَّر هي؟ أم من قافية العرب؟! أَمِن سَجْع الكهَّان هي؟ أم من أشعار الجانِّ؟ أعني بذلك: فواصل القرآن؛ الَّتي زيَّنت وقعه على الآذان وأبلغت آثارَه في الجنان.

لقد درَس علماء اللُّغة والتَّفسير وعلوم القرآن الفاصلة القرآنيَّة، فبيَّنوا اختلافها عن القافية والسَّجع وأنَّها ليست من جميع ذلك، وأنَّها خاصِّيَّة تميَّز بها القرآن الكريم عن سائر الكلام، فهي من مظاهر إعجازه وممَّا يدخل في المتحدَّى به.

كما بيَّن العلماء أنَّ رعاية الفاصلة كغرض متعلِّق بتحسين العبارة ليس مجرَّدا عن أغراض أخرى متعلِّقة بالمعنى والدَّلالة، ومن هؤلاء الأعلام محمد الطَّاهر بن عاشور في تفسيره "التَّحرير والتَّنوير". ومن هنا انبثقت إشكاليَّة هذا البحث والَّتي يمكن صياغتها على النَّحو الآتي: ما أساليب رعاية الفاصلة القرآنيَّة؟ وما مدى اقتران رعاية الفاصلة بأغراض أخرى من خلال تفسير التَّحرير والتَّنوير؟ وبناءً عليه ناسب بحث الموضوع بعنوان: "**رعاية الفاصلة القرآنيَّة: أساليبها والأغراض المقترنة بها من خلال تفسير ابن عاشور**".

وقد تولَّد الدَّافع لبحث هذا الموضوع في طور إعداد أطروحة الدُّكتوراه، حيث لفت نظرنا عناية ابن عاشور في تفسيره برعي القرآن الكريم للفاصلة، واجتهاداته الرَّامية إلى استكشاف أساليبها، وتصيُّد الأغراض المقترنة بها.

وتكمن أهميَّة هذا الموضوع في أنَّه أحد أنواع إعجاز القرآن الكريم في فصاحته وبلاغته، الَّتي أماط عنها اللِّثام الخبير اللُّغويُّ والمفسِّر القدير ابن عاشور في تفسيره الموسوعيّ؛ ومن ثَمَّ فإنَّ هذا البحث يسعى إلى الكشف عن مدى تفنُّن القرآن الكريم في أساليبه، وإبداعه في تحقيق أغراضه، والانسجام بين حسن العبارة وثراء المعنى من خلال فواصله في ضوء ما جاء في ذلك السِّفر التَّفسيريّ.

وقصد تحقيق تلك الأهداف تمَّ توظيف المنهج الوصفيّ الَّذي يناسب طبيعة الموضوع، مع استدعاء عدَّة آليات مساعدة كالاستقراء والتَّحليل والنَّقد أحيانًا والاستنباط، فجاء البحث في مطلبين، تتصدَّرهما مقدِّمة، وتعقبهما خاتمة تنطوي على أهمّ النَّتائج المتوصَّل إليها، خصِّص المطلب الأوَّل لتعريف الفاصلة القرآنيَّة، وأمَّا الثاني فيتناول مبحث الفاصلة القرآنيَّة تطبيقيًّا في تفسير ابن عاشور.

وانطلاقا من هذه الخطَّة تأتي تفاصيل الموضوع كالآتي:

**المطلب الأوَّل: تعريف الفاصلة القرآنيَّة**

يستدعي تعريف الفاصلة القرآنيَّة في الاصطلاح بيان معناها في اللُّغة أوَّلا؛ لأنَّ المعاني الاصطلاحيَّة تبنى على المعاني اللُّغويَّة وفقا لما هو معروف عند جمهور العلماء.

**الفاصلة لغة:**

بتتبُّع الاستعمال المعجميّ لمادَّة (فصل) نجد أنَّ الفصل هو ما يكون بين شيئين يفرّق بينهما ويتميَّز به أحدهما عن الآخر، وهو البَوْن أو المُهلة أو الحاجز أو موضع افتراق الشَّيئين وانقطاع أحدهما عن الآخر أو موضع التقائهما كذلك.[1]

**الفاصلة اصطلاحا:**

تتعدَّد التَّعريفات الاصطلاحيَّة عموما تبعا لاختلاف التَّخصُّص، ونكتفي هنا بتعريفها عند أصحاب التَّخصُّصات اللَّصيقة بالدِّراسات القرآنيَّة، ومن بينها:

**أوَّلا: الفاصلة في اصطلاح أهل العروض**

هي كلمةٌ يكون جميع حروفها متحرِّكا إلَّا الأخير، فإن كانت رُباعيَّة فصغرى نحو حبلٌ بالتَّنوين، وإن كانت خماسيَّة فكبرى نحو سمكةٌ بالتَّنوين.[2]

**ثانيا: الفاصلة في اصطلاح علماء الدِّراسات القرآنيَّة**

عرِّفت بتعريفاتٍ مختلفة بحسب العموم والخصوص، فمنهم من يرى أنَّها حروف، ومنهم من يرى أنَّها كلمة، وفيما يأتي بعض من تلك الأقوال:

يرى الرُّمَّانيُّ (ت:384ه) أنَّ الفواصل قائمةٌ على أساس الحروف، فعرَّفها بأنَّها: "حروفٌ متشاكلةٌ في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني"[3]، وتبعه في ذلك القاضي أبو بكر الباقلَّانيُّ (ت:403ه)[4]، والملاحظ في تعريفهما للفاصلة أنَّه لا يجرِّد تشاكل الحروف عن قصد المعاني. وأمَّا المقصود بالمقاطع فلا يتَّضح، أنهايات الجمل هي؟ أم نهايات الآي؟!

[1] ينظر: ابن فارس، مقاييس اللُّغة، (505/4)، وابن منظور، لسان العرب، (521/11-524).

[2] ينظر: التَّهانويُّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، (1261/2).

[3] الرُّمَّانيُّ، النُّكت في إعجاز القرآن، ص19.

[4] ينظر: الباقلَّانيُّ، إعجاز القرآن، ص270.

وفي المقابل يرى أبو عمرو الدَّاني (ت:444هـ) والزَّركشيُّ (ت:794هـ) أنَّ الفاصلة كلمةٌ، فأمَّا الدَّاني فهي عنده "كلمة آخر الجملة"[1]، سواءٌ أكانت رأس آيةٍ أم لا، حيث فرَّق بين الفواصل ورؤوس الآي فقال: "وأمَّا الفاصلة فهي الكلام التَّامُّ المنفصل ممَّا بعده، والكلام التَّامُّ قد يكون رأس آيةٍ وكذلك الفواصل يكُنَّ رؤوس آيٍ وغيرَها. فكلُّ رأس آيةٍ فاصلةٌ وليس كلُّ فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعمُّ النَّوعين وتجمع الضَّربين"[2]. وأمَّا الزَّركشيُّ فهي عنده: "كلمة آخر الآية، كقافية الشِّعر وقرينة السَّجع"[3].

وجاء ابن عاشور بعدهما فبسط القول في الفاصلة القرآنيَّة نظريًّا في المقدِّمة الثَّامنة من مقدِّمات تفسيره، وأيضًا في ثنايا تفسيره، فذكر في تلك المقدِّمة استخلاصه في الفواصل بأنَّها "الكلمات الَّتي تتماثل في أواخر حروفها أو تتقارب، مع تماثل أو تقارب صيغ النُّطق بها، وتُكرَّر في السُّورة تكرارا يؤذن بأنَّ تماثلها أو تقاربها مقصود من النَّظم في آيات كثيرة متماثلة، تكثر وتقل، وأكثرها قريب من الأسجاع في الكلام المسجوع. والعبرة فيها بتماثل صيغ الكلمات من حركات وسكون، وهي أكثر شبها بالتزام ما لا يلزم في القوافي. وأكثرها جار على أسلوب الأسجاع"[4].

فيظهر من تعريف ابن عاشور أنَّه وقف على اختلاف العلماء في التَّعبير عن الفاصلة بالعموم والخصوص، فاستخلص تعريفا جمع فيه بين العامِّ والخاصِّ (الكلمة والحروف)، وبيَّن أنَّ العبرة ليست بالحروف ولا بالكلمات، وإنَّما العبرة بتماثل صيغ الكلمات من حركات وسكون، وقد قال في موضعٍ آخر من تفسيره: "وفواصل القرآن تعتمد كثيرا على الحركات والمدود والصِّيغ دون تماثل الحروف، وبذلك تخالف قوافي القصائد"[5]. واستخلص كذلك أنَّ الفواصل كلَّها منتهى آيات إلَّا نادرا[6].

[1] - ذكره عنه الزَّركشيُّ. الزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن، ص50.
[2] - الدَّاني، البيان في عدِّ آي القرآن، ص126.
[3] - الزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن، ص50.
[4] - ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (75/1).
[5] - نفسه، (169/21).
[6] - ينظر: نفسه، (75/1).

**المطلب الثَّاني: رعاية الفاصلة تطبيقيًّا في "التَّحرير والتَّنوير"**

من خلال استقراء وتتبُّع كلام ابن عاشور في فواصل القرآن تبيَّن تنوُّع أساليب رعايتها إلى ستَّة أساليب، وأيضًا تنوعُ الأغراض المقترنة برعايتها، وذلك على النَّحو الآتي:

**الأسلوب الأوَّل: التَّقديم والتَّأخير**

التَّقديم والتَّأخير من أهمِّ الأساليب البلاغيَّة الدَّالة على التَّمكُّن والملكة في الكلام[1]، ومن أكثر أبواب اللُّغة فائدةً[2]، وأدقِّها سرًّا[3]، حسن الموقع في القلوب، عذب المذاق في الأسماع[4]، قال الجُرجانيُّ: "لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شِعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثُمَّ تنظر فتجد سبب أن راقك ولطُف عندك، أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحُوِّل اللَّفظ عن مكان إلى مكان"[5].

والتَّقديم والتَّأخير واردٌ بكثرةٍ في القرآن الكريم، وخاصَّةٌ ما جاء منه رعايةً للفاصلة. ومن صوره الَّتي ذكرها ابن عاشور في تفسيره ما يلي:

**أ- تقديم ما أصله أن يؤخَّر بالنَّظر إلى أصل تركيب الكلام (العدول النَّحويُّ)**

من عادة العرب في تركيب كلامهم، بل أصلٌ فيه، تقديم الفعل على الفاعل، والفاعل على المفعول، والمبتدأ على الخبر، وصاحب الحال عليها ... إلخ[6]، إلَّا أنَّها قد تعدل أحيانا عن ذلك النَّحو من التَّرتيب الطَّبيعيّ المألوف لأجزاء الجملة؛ فتقدِّم ما أصله أن يؤخَّر وتؤخِّر ما أصله أن يقدَّم لأغراضٍ كثيرة.

وجريًا على لسان العرب، لم يخل القرآن الكريم من هذا الأسلوب ومن أغراضه المختلفة، ومن مظانِّه فواصل القرآن، فكان تقديم ما أصله أن يؤخَّر أو تأخير ما أصله أن يقدَّم أسلوبًا من أساليب رعاية الفاصلة، على أنَّه لا يعدم أغراضًا أخرى تقترن بذلك الغرض. ومن أنواع هذا الأسلوب:

[1] - ينظر: الزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن، ص770.
[2] - ينظر: الجرجانيُّ، دلائل الإعجاز، ص106.
[3] - ينظر: ابن الأثير، المثل السَّائر، (210/2).
[4] - ينظر: الزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن، ص770.
[5] - الجرجانيُّ، دلائل الإعجاز، ص106.
[6] - ينظر: الزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن، ص770.

**1- تقديم المجرور على متعلَّقه:**

ذكر ابن عاشور أنَّ تقديم الجارّ والمجرور على متعلَّقه في قوله تعالى: ﴿**عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ (المائدة: من الآية 113) إنَّما هو للرِّعاية على الفاصلة[1].

والملاحظ عند ابن عاشور في مثل هذا النَّوع أنَّه أحيانا يقتصر على ذكر غرضِ "رعاية الفاصلة" دون أن يشفِّعه بغرض آخر، فينبّه أحيانا إلى أنَّ غرض رعاية الفاصلة وحدَه نوعٌ من أنواع الإعجاز القرآنيّ لكونه من مقتضيات الفصاحة، وأحيانا أخرى يشفِّعه بأغراض أخرى، والمتمثِّلة فيما يأتي:

- **الاهتمام بالشَّيء:** من أغراض تقديم ما أصله أن يؤخَّر الاهتمام به، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**﴾ (النِّساء: من الآية 63)، قال ابن عاشور: "وقوله ﴿**فِي أَنْفُسِهِمْ**﴾ يجوز أن يتعلَّق بقوله بليغا، وإنَّما قدِّم المجرور للاهتمام بإصلاح أنفسهم مع الرعاية على الفاصلة"[2].

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿**مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ**﴾ (القلم: من الآية 46)، قدِّم فيه ﴿**مِنْ مَغْرَمٍ**﴾ على متعلَّقه ﴿**مُثْقَلُونَ**﴾، قال ابن عاشور: "وتقديم المعمول على عامله للاهتمام بموجب المشقَّة قبل ذكرها مع الرِّعاية على الفاصلة"[3].

- **التَّنويه بالشَّيء:** من أغراض تقديم ما أصله أن يؤخَّر الإشادة به، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ (الزُّخرف: من الآية 78)، فتقديم ﴿**لِلْحَقِّ**﴾ على ﴿**كَارِهُونَ**﴾ "للاهتمام بالحقّ تنويها به، وفيه إقامة الفاصلة أيضا"[4].

- **التَّنبيه على أمر:** من أغراض تقديم ما أصله أن يؤخَّر لفت انتباه السَّامع إليه وحثِّه على توجيه النَّظر إليه، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (البقرة: من الآية 143)، فتقديم ﴿**بِالنَّاسِ**﴾ على متعلَّقه وهو ﴿**رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ "للتَّنبيه على عنايته بهم إيقاظا لهم ليشكروه مع الرِّعاية على الفاصلة"[5].

-

---

[1]- ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (107/7).

[2]- نفسه، (108/5).

[3]- نفسه، (103/29).

[4]- نفسه، (261/25).

[5]- نفسه، (26/2).

- **الثَّناء على أهل الإيمان وتحذيرهم والتَّعريض بالمشركين:** ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ (البقرة: من الآية 4)، قدِّم فيه المجرور الَّذي هو معمول يوقنون على عامله. وقد دفع ابن عاشور توهُّم إرادة الحصر من هذا التَّقديم، وبيَّن أنَّ الغرض منه مجرَّد الاهتمام مع رعاية الفاصلة، ثمَّ قال: "وأرى أنَّ في هذا التَّقديم ثناء على هؤلاء بأنَّهم أيقنوا بأهمِّ ما يوقن به المؤمن، فليس التَّقديم بمفيد حصرا، إذ لا يستقيم معنى الحصر هنا بأن يكون المعنى أنَّهم يوقنون بالآخرة دون غيرها"[1]. وممَّا يؤكد ما ذهب إليه ابن عاشور، من تعيين الغرضِ بالثَّناء، الإشارةُ إليهم في الآية الَّتي تليها مباشرة باسم الإشارة (أولئك)، الدَّالِّ على سموِّ منزلتهم، لشرفها وصعوبة بلوغها إلَّا بالتَّروُّض.

فعلاوة على رعاية الفاصلة في هذا المثال هناك غرض آخر، يتمثَّل في الاهتمام بالأمر المقدَّم والثَّناء على أهله.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ (الأنفال: من الآية 2)، حيث قدِّم الجارُّ والمجرور على متعلَّقهما، وأرجعه ابن عاشور إلى احتمالين:

**الأوَّل**: رعاية الفاصلة جريا على الفصاحة، مع ما فيه من العناية باسم الرَّبِّ؛ صاحب القدرة والفضل والإحسان كلِّه الذي لا يخيب المعتمد عليه.

**الثَّاني**: التَّعريض بالمشركين الَّذين يتوكَّلون على آلهتهم من الأصنام استمدادا للغوث منهم، ودعَّم ذلك بما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا**﴾ (مريم:81). ولا شكَّ أنَّ ذلك ينطوي على مدح المؤمنين وذمّ المشركين، وتشمُّ منه رائحة التَّحذير للمؤمنين من التَّعلُّق بشيء من بقايا الشِّرك توهُّما منهم فوات الخير الدُّنيويّ بسب ذلك.[2]

- **زيادة الاستحضار والتَّشويق:** من أغراض تقديم ما أصله أن يؤخَّر زيادةُ استحضار المقدَّم عند السَّامع والتَّشويق لمتعلَّقه المؤخَّر، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**﴾ (يس:71)، قال ابن عاشور:

[1] - ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (240/1).

[2] - نفسه، (259/9).

"وتقديم ﴿لَهَا﴾ على ﴿مَالِكُونَ﴾ الَّذي هو متعلَّقه لزيادة استحضار الأنعام عند السَّامعين قبل سماع متعلَّقه ليقع كلاهما أمكن وقع بالتَّقديم وبالتَّشويق، وقضى بذلك أيضا رعي الفاصلة"[1].

- **تقوّي الخبر:** ومن ذلك تقديم الجارّ والمجرور (إِلَيْنَا) في قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ (الأنبياء:35). فالغرض منه علاوة على رعي الفاصلة تقوّي الخبر، بينما استبعد ابن عاشور إفادة القصر من هذا التَّقديم؛ لاستحالة تصوُّره لدى المخاطبين، إذ ليس ضدُّه باعتقاد لهم في كلّ الأحوال.[2]

كما استبعد الاختصاص في نظيرتها، وهي قوله تعالى: ﴿**وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ (الملك: من الآية 24)؛ معلِّلا ذلك بعدم ادِّعاء المخاطبين الحشر أصلا فضلا عن ادِّعائه لغير الله تعالى، فيكون الغرض من التَّقديم حينها الاهتمام والرِّعاية على الفاصلة.[3]

- **التَّعجيب:** ومن ذلك تقديم ﴿**عَلَى ذَلِكَ**﴾ على ﴿**شَهِيدٌ**﴾ في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ**﴾ (العاديات:7)، حيث يرجعه ابن عاشور- علاوة على رعاية الفاصلة- إلى الاهتمام والتَّعجيب[4]، فاقترن هنا ثلاثة أغراض.

- **التَّعجيل بالأمر المقدَّم:**

ومن ذلك تعجيل المساءة والتَّرهيب للكفَّار، ففي قوله تعالى: ﴿**وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ**﴾ (التوبة: من الآية 17) قدِّم ﴿**فِي النَّارِ**﴾ على ﴿**خَالِدُونَ**﴾ رعاية على الفاصلة، ومعه تعجيل المساءة للكافرين إذا سمعوه.[5]

والغرض نفسه نبَّه عليه في تفسير قوله تعالى: ﴿**عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ**﴾ (البلد: 20)، حيث قال: "و﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ متعلِّق بـ ﴿**مُؤْصَدَةٌ**﴾، وقدِّم على عامله للاهتمام بتعلُّق الغلق عليهم تعجيلا للتَّرهيب. وقد استتبَّ بهذا التَّقديم رعاية الفواصل بالهاء ابتداء من قوله: ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾ (البلد: 11)"[6]. فجمع بين غرضين؛ غرض معنويٌّ كفيل بتحقيق الرَّدع، وغرض جماليٌّ.

---

[1]- ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، ، (68/23-69).

[2]- ينظر: نفسه، (65/17).

[3]- نفسه، (48/29).

[4]- ينظر: نفسه، (505/30).

[5]- ينظر: نفسه، (141/10).

[6]- نفسه، (363/30).

**2- تقديم الخبر على المبتدأ:**

قد يتقدَّم الخبر على المبتدأ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ**﴾ (الملك: من الآية 12)، وأرجع ابن عاشور ذلك إلى نكت كثيرة، واقتصر على ذكر ثلاثة منها، أوَّلها: إمكانيَّة تنكير المبتدأ، وفي ذلك موافقة وجه النَّحو، وتنكير المبتدأ في هذا الموضع له غرض بلاغيٌّ وهو التَّعظيم بحيث لا يعلم مقدار تلك المغفرة إلاّ الله تعالى، وثانيها: إفادة الاهتمام، وثالثها: رعاية الفاصلة[1]. فمن أغراض تقديم ما أصله أن يؤخَّر- زيادةً على رعاية الفاصلة- موافقة وجه النَّحو.

ومن جنس تقديم الخبر على المبتدأ تقديمُ خبر النَّاسخ على اسمه، نحو ما في قوله تعالى: ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ (الإخلاص: 4)، قال ابن عاشور: "وحصل بهذا جناس تامٌّ مع قوله: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ (الإخلاص:1). وتقديم خبر (كان) على اسمها للرِّعاية على الفاصلة وللاهتمام بذكر الكفؤ عقب الفعل المنفيّ ليكون أسبق إلى السَّمع"[2]. فتحصَّل هنا ثلاثة أغراض: رعاية الفاصلة، والاهتمام، ومحسِّن من البديع وهو الجناس.

**3- تقديم المفعول على فاعله:**

قد يتقدَّم المفعول على فاعله، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ (الروم: من الآية 9)، حيث قدَّم المفعول وهو ﴿**أَنْفُسَهُمْ**﴾ على فعله ﴿**يَظْلِمُونَ**﴾؛ وذلك لغرض معنويٍّ وآخر جماليٍّ، أمَّا المعنويُّ فالتَّعجُّب من حال الظَّالمين لأنفسهم؛ إذ النَّفس عزيزة ومع ذلك يوردونها المهالك، وفي ذلك دعوة إلى ضرورة الاهتمام بأنفسهم، أمَّا الغرض الجماليُّ فرعي الفاصلة.

وأمَّا إفادة الحصر بالتَّقديم والتَّأخير، فقد نفاه ابن عاشور في هذا الموضع، ووضَّح أنَّ الحصر قد حصل من جملتي النَّفي والإثبات[3]. فاجتمع من الأغراض هنا: رعاية الفاصلة، والتَّعجيب، والاهتمام.

[1] - ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (29/29).

[2] - نفسه، (620/30).

[3] - ينظر: نفسه، (59/21).

**4- تقديم الصِّفة على الموصوف:**

الأصل في الكلام تقدُّم الموصوف على الصِّفة، ولكن قد يقع خلاف الأصل، فما السَّبب؟ لمعرفة ذلك نبحث ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَغَرَابِيبُ سُودٌ**﴾ (فاطر: من الآية 27)، ونستكشف معنى اللَّفظين؛ فكلمة ﴿**سُودٌ**﴾ عبارة عن لون ليليٍّ، و﴿**غَرَابِيبُ**﴾ صفة تفيد زيادة شدَّة اللَّون وحلوكته، فكان الأصل أن يتقدَّم اللَّون ثُمَّ صفته لكن حدث العكس، وذلك لرعاية فواصل السُّورة المبنيَّة على الواو والياء السَّاكنتين، وهو ما تفطَّن له ابن عاشور وصرَّح به في قوله: "فكان مقتضى الظَّاهر أن يكون ﴿**غَرَابِيبُ**﴾ متأخِّرا عن ﴿**سُودٌ**﴾ لأنَّ الغالب أنَّهم يقولون: أسودٌ غربيبٌ، كما يقولون: أبيض يَقِقٌ وأصفر فاقع وأحمر قانٍ، ولا يقولون: غربيبٌ أسْود، وإنَّما خولف ذلك للرِّعاية على الفواصل المبنيَّة على الواو والياء السَّاكنتين ابتداء من قوله: ﴿**وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ (فاطر: من الآية 15)"[1]. فتقديم الصِّفة على الموصوف في القرآن الكريم لا يأتي عبثا، إنَّما يقع لأغراض تتنوَّع تبعا للموضوعات والسِّياق.

**ب- تقديم ما أصله أن يؤخَّر بالنَّظر إلى ترتيب الوجود (العدول عن التَّرتيب الوجوديّ):**

الأصل أن يتقدَّم في الذِّكر سابقُ الوجود على ما جاء بعده، إلَّا أنَّه قد يُعدَل عن التَّرتيب الوجوديّ رعايةً للفاصلة، فيقدَّم المتأخِّرُ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)**﴾ (التِّين:1-3). فبعدما ذكر ابن عاشور تفسيرَ من قال إنَّ التِّين إيماءٌ إلى شريعة نوح، والزَّيتون إيماء إلى شريعة عيسى، والطُّور إيماء إلى شريعة موسى، والبلد الأمين إشارة إلى شريعة محمد ﷺ، قال: "وبذلك يكون ترتيب الإيماء إلى شرائع نوح وموسى وعيسى ومحمَّد عليهم الصَّلاة والسَّلام غير جار على ترتيب ظهورها، فتوجيه مخالفة التَّرتيب الذِّكريّ للتَّرتيب الخارجيّ أنَّه لمراعاة اقتران الاسمين المنقولين عن اسمي الثَّمرتين، ومقارنة الاسمين الدَّالَّين على نوعين من أماكن الأرض، ليتأتَّى محسِّن مراعاة النَّظير ومحسِّن التَّورية، ولِيناسب ﴿**سِينِينَ**﴾ فواصل السُّورة"[2]. فمن الأغراض المقترنة برعاية الفاصلة محسِّناتٌ بديعيَّة أخرى معنويَّة كمراعاة النَّظير والتَّورية.

[1]- ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (303/22).

[2]- نفسه، (422/30).

**ج- تقديم ما استحقَّ بالسِّياق أن يؤخَّر (العدول السِّياقيُّ):**

قد يكتسب اللَّفظ أولوية التَّقديم من سياق الكلام الَّذي هو منه، ليكون الكلام متشاكلا متناسبا في ترتيبه[1]، إلَّا أنَّه -بالرَّغم من ذلك- قد يقدَّم ما استحقَّ بالسِّياق أن يؤخَّر أو يؤخَّر ما استحق بالسِّياق أن يقدَّم فما السَّبب؟

إنّ ممَّا جاء في القرآن الكريم من تقديم أحد المتقابلين على مقابله، رغم أنَّ الظَّاهر يقتضي تأخيره، ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١)**﴾ (فاطر: 19-21)، حيث يُلاحظ أنَّ السِّياق ورد بتقديم الأعمى على البصير، والظُّلمات على النُّور، في الآيتين الأوليين، فكان المتوقَّع تقديم الحرور على الظِّلّ في الآية الَّتي بعدهما؛ لأنَّ السِّياق ورد بتقديم ما هو من حال الكافرين على ما هو من حال المؤمنين، لكنَّه خالف ذلك في الآية الثَّالثة فقدَّم ما هو من حال المؤمنين (الظِّلّ)، على ما هو من حال الكافرين (الحرور)، وعزا ابن عاشور السِّرَّ إلى رعاية الفواصل القرآنيَّة الَّتي تنمُّ عن فصاحة القرآن الَّتي لها حظٌّ من إعجازه.[2]

فالملاحظ أنَّه إذا ما وقف ابن عاشور على مجرَّد غرض رعاية الفاصلة، فإنَّه أحيانا يذكِّر بأنَّ ذلك من متمِّمات الفصاحة الَّتي هي من أوجه إعجاز القرآن الكريم.

**د- التَّقديم والتَّأخير المطلق:**

ونعني بالتَّقديم والتَّأخير المطلق ما ليس فيه عدول عن أصلٍ أو استحقاقٍ أو أولويةِ السَّبق في التَّرتيب للفظٍ على حساب غيره؛ فيكون النَّظر حينئذ في سرِّ اختيار تقديم المقدَّم على غيره. قال الزَّركشيُّ: "من عادة العرب الفصحاء إذا أخبرت عن مُخبَرٍ ما وأناطت به حكما وقد يشركه غيره في ذلك الحكم أو فيما أُخبِر به عنه، وقد عطَفت أحدَهما على الآخر بالواو المقتضية عدم التَّرتيب؛ فإنَّهم مع ذلك إنَّما يبدؤون بالأهمِّ والأَوْلى، قال سيبويه: كأنَّهم يقدِّمون الَّذي شأنه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمَّانهم ويعنيانهم. انتهى"[3].

[1]- ينظر: الزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن، ص771.

[2]- ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (293/22).

[3]- الزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن، ص771.

وممَّا ورد من التَّقديم والتَّأخير- الَّذي ليس فيه عدولٌ عمَّا ذُكر- رعايةً للفاصلة، في تفسير ابن عاشور ما يأتي:

**1- تقديم فعلٍ على فعل:**

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى**﴾ (النَّجم:43)؛ فليس الأصل أو الأولى أن يقدَّم الإبكاء على الإضحاك ولا العكس، ولكن رعايةً للفاصلة قُدِّم الإضحاك على الإبكاء، مع اقتران ذلك بغرضٍ آخر وهو الامتنان، قال ابن عاشور: "وتقديم الضَّحك على البكاء لأنَّ فيه امتنانا بزيادة التَّنبيه على القدرة وحصل بذلك مراعاة الفاصلة"[1].

**2- تقديم وصف على وصف:**

ومن ذلك تقديم (رؤوف) على (رحيم) في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (البقرة: من الآية 143)، فلا استحقاق لأحد الوصفين في أن يقدَّم على الآخر، وليس عطف العامِّ (رحيم) على الخاصِّ (رؤوف) بأولى من عطف الخاصِّ على العامِّ، ولكن رعايةً للفاصلة قُدِّم (رؤوف) "ليقع لفظ ﴿**رَحِيمٌ**﴾ فاصلة، فيكون أنسب بفواصل هذه السُّورة، لانبناء فواصلها على حرف صحيح ممدود يعقبه حرف صحيح ساكن"[2].

ومن ذلك أيضا تقديم وصف ﴿**الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ على وصف ﴿**الضَّالِّينَ**﴾ في قوله تعالى: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ (الفاتحة:7)، قال ابن عاشور: "ارتقاء في التَّعوُّذ من شرِّ سوء العاقبة لأنَّ التَّعوُّذ من الضَّلال الَّذي جلب لأصحابه غضب الله لا يغني عن التَّعوُّذ من الضَّلال الَّذي لم يبلغ بأصحابه تلك الدَّركات، وذلك وجه تقديم ﴿**الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ على ﴿**وَلَا الضَّالِّينَ**﴾، لأنَّ الدُّعاء كان بسؤال النَّفي، فالتَّدرُّج فيه يحصل بنفي الأضعف بعد نفي الأقوى، مع رعاية الفواصل"[3]. فتحصَّل هنا غرضان: رعاية الفاصلة ومراعاة التَّدرُّج.

---

[1]- ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (143/27).

[2]- ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (25/2-26).

[3]- نفسه، (196/1-197).

**3- تقديم فرد على فرد:**

من أصل ثمانية مواضع في القرآن الكريم فيها عَطْف اسمي (موسى) و (هارون) - عليهما السَّلام- أحدهما على الآخر، تقدَّم اسم موسى على اسم هارون في سبعة مواضع[1]، في حين تقدَّم اسم هارون على اسم موسى في موضع واحد فقط وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**﴾ (طه: 70). وفي المواضع السَّبعة وقع اسم موسى عليه السَّلام فاصلةً في خمسة مواضع، فإن كان تقديم موسى على هارون فيها رعايةً للفاصلة، فإنَّ الموضعين الآخرين ليسا بفاصلة، وذلك ما يرجِّح استحقاق تقديم موسى على هارون المكتسب من أسبقيَّته عليه في الرِّسالة وفضله عليه بها.

وأمَّا تقديم ذكر هارون على ذكر موسى -عليهما السَّلام- في الموضع الوحيد المشار إليه سابقا (طه:70): فإمَّا أن يكون من باب تقديم ما أصله أن يؤخَّر رعايةً للفاصلة، وإمَّا أن يكون من باب حكاية قول السَّحرة، وتقديمُهم لهارون لأنَّه أكبر من موسى عليهما السَّلام، فلا يكون هناك تقديمٌ لما أصله أن يؤخَّر، فغرض رعاية الفاصلة حاصلٌ من الوجهين، ويزيد الثَّاني بغرض موافقة المحكيِّ، قال ابن عاشور: "فيكون صدر منهم قولان، قدَّموا في أحدهما اسم هارون اعتبارا بكبر سنِّه، وقدَّموا اسم موسى في القول الآخر اعتبارا بفضله على هارون بالرِّسالة وكلام الله تعالى، فاختلاف العبارتين باختلاف الاعتبارين"[2].

ومن أمثلة رعاية الفاصلة بالتَّقديم والتَّأخير، بتقديم ذِكر فردٍ على آخر، ما جاء في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥)**﴾ (عبس: 34-35)، حيث قال ابن عاشور: "وقدِّمت الأمُّ في الذِّكر لأنَّ إلف ابنها بها أقوى منه بأبيه وللرَّعي على الفاصلة"[3]. فليس هنا تقديم ما أصله أن يؤخَّر وإنَّما تقديم الأقوى ثُمَّ الأضعف مع الرِّعاية على الفاصلة، إذ كان بالإمكان تقديم الأضعف ثُمَّ التَّعقيب بالأقوى من باب الارتقاء الرُّتبيِّ، فاجتمع في هذا المثال غرضان.

[1] - وهي: (الأنعام:84)، (الأعراف:122)، (يونس:75)، (الأنبياء:48)، (الشُّعراء:48)، (الصَّافَّات:114، 120).

[2] - ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (16/262-263).

[3] - نفسه، (30/135).

**الأسلوب الثَّاني: الإيجاز**

الإيجاز من أساليب القرآن وفنونه البديعة، وقسم من أقسام بلاغته، ووجه من أوجه إعجازه، وقد عرِّف بأنَّه: "البيان عن المعنى بأقلِّ ما يمكن من الألفاظ" أو "إظهار المعنى الكثير باللَّفظ اليسير"[1].

والتَّفصيل أنَّ الإيجاز على وجهين: حذفٌ وقصرٌ. فأمَّا الحذف فهو: "إسقاط كلمة للإجزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام"[2]، وقيل: "إسقاط جزء الكلام أو كلِّه لدليل"[3]. وهو كما قال الجرجانيُّ: "بابٌ دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسِّحر، فإنَّك ترى به ترك الذِّكر أفصح من الذِّكر، والصَّمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِنْ"[4]. وأمَّا القصر فهو: "بنية الكلام على تقليل اللَّفظ وتكثير المعنى من غير حذف".[5]

ومن مظانِّ الإيجاز بوجهيه في القرآن الكريم فواصلُه؛ إذ هو أسلوب من أساليب رعايتها، على أنَّه لا يعدم أغراضا أخرى مقترنة برعاية الفاصلة.

فممَّا وقع من إيجاز القصر رعايةً للفاصلة ما جاء في قوله تعالى: ﴿**فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾ (طه: من الآية 117)، حيث أسند الشَّقاء إلى آدم دون حوَّاء، مع أنَّهما يشتركان في الحكم، "إيجازًا، لأنَّ في شقاء أحد الزَّوجين شقاء الآخر لتلازمهما في الكون، مع الإيماء إلى أنَّ شقاء الذَّكَر أصل شقاء المرأة، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة"[6]. فاقترن ههنا غرض رعاية الفاصلة من خلال الإيجاز بغرض الإيماء إلى علاقةٍ بين أمرين.

---

[1]- الرُّمَّانيُّ، النُّكت في إعجاز القرآن، ص5.

[2]- الرُّمَّانيُّ، النُّكت في إعجاز القرآن ، ص2.

[3]- الزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن، ص685.

[4]- الجرجانيُّ، دلائل الإعجاز، ص146.

[5]- الرُّمَّانيُّ، النُّكت في إعجاز القرآن، ص1-2.

[6]- ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (321/16).

وأمَّا إيجاز الحذف رعايةً للفاصلة فورد على صور مختلفة، وبيانها على النَّحو الآتي:

**أ- حذف متعلَّق الفعل:**

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى**﴾ (طه:45)، فالملاحظ حذف متعلَّق ﴿**يَطْغَى**﴾، ومرجعه عند ابن عاشور إلى احتمالين[1]:

**الأوَّل:** أنَّ متعلَّق الفعل المحذوفِ نظيرُ المذكور ﴿**يَفْرُطَ عَلَيْنَا**﴾، وقد حذف لدلالة نظيره عليه، وتقديره (يطغى علينا)، وأوثر بالحذف لرعاية الفواصل؛ وذلك جريا على عادة العرب في حذف المعلوم من السِّياق أو الحال أو المقام لدى السَّامع.

أمّا الاحتمال **الثَّاني:** فكون متعلَّق ﴿**يَطْغَى**﴾ ليس نظيرا للمذكور ممَّن يُقدر على عقوبته، وإنَّما هو من لا يناله عقابه، وهو الله تعالى، والمعنى: أن يطغى عليه بالتَّنقيص، وحُذف لفظ الجلالة لتنزيهه عن التَّصريح به في هذا المقام غيرة على جانب الله تعالى، وحصل مع ذلك رعي الفاصلة.. فرعاية الفاصلة من خلال الحذف على هذا الوجه من التَّأويل مقترنة بغرض آخر هو تنزيه الله تعالى.

والَّذي يظهر من الاحتمال الأوَّل الَّذي ذكره ابن عاشور أنَّ الإيجاز مع كونه أسلوبا من أساليب رعاية الفاصلة، هو أيضا غرضٌ مقصود لذاته؛ لأنَّه من عناصر بلاغة القرآن الكريم. ومن المواضع الَّتي كان فيها الإيجاز أسلوبا من أساليب رعاية الفاصلة وفي الوقت نفسه غرضا من الأغراض المقترنة برعاية الفاصلة، ما جاء في قوله تعالى: ﴿**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ**﴾ (القمر:10)، حيث قال ابن عاشور: "وحذْف متعلَّق ﴿**فَانْتَصِرْ**﴾ للإيجاز وللرَّعي على الفاصلة، والتَّقدير: فانتصر لي، أي انصرني"[2].

**ب- حذف المفعول به:**

ومن ذلك حذف بعض المفاعيل في سورة الضُّحى، قال ابن عاشور: "وحذفت مفاعيل فآوى، فهدى، فأغنى للعلم بها من ضمائر الخطاب قبلها، وحذفها إيجاز، وفيه رعاية على الفواصل"[3]. فهنا أيضا اقترن غرض الإيجاز بغرض رعاية الفاصلة.

---

[1]- ينظر: نفسه، (16/227-228).

[2]- ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (27/182).

[3]- نفسه، (30/400).

**ج- حذف المضاف إليه:**

ومن ذلك حذف ياء المتكلِّم الَّتي أضيف إليها ﴿**وَعِيدِ**﴾ في قوله تعالى: ﴿**وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**﴾ (ق:14)، حيث ذكر ابن عاشور أنَّ مثل هذا الحذف كثيرٌ في القرآن، واقتصر في هذا الموضع على ذكر غرض رعاية الفاصلة[1]، وأمَّا قوله تعالى: ﴿**أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ**﴾ (الملك:17)، فأرجع ابن عاشور حذف ياء المتكلِّم من (نذيري) إلى اجتماع غرضين اثنين وهما: التَّخفيف والرَّعي على الفاصلة[2].

**د- حذف الموصوف وترك الصِّفة:**

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤)**﴾ (النَّجم: 53-54)، قال ابن عاشور: "والمؤتفكة صفة لموصوف محذوف يدلُّ عليه اشتقاق الوصف ... والتَّقدير: القرى المؤتفكة، وهي قرى قوم لوط الأربع وهي: (سَدوم) و(عُمورة) و(آدمة) و(صبوييم) ... وذكرت القرى باعتبار ما فيها من السُّكَّان تفنُّنا ومراعاة للفواصل"[3].

**هـ- حذف ياء الاسم المنقوص:**

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾ (الرَّعد:9)، حيث حذفت الياء من الاسم المنقوص ﴿**الْمُتَعَالِ**﴾، وأعاده ابن عاشور إلى "مراعاة الفواصل السَّاكنة، لأنَّ الأفصح في المنقوص غير المنوَّن إثبات الياء في الوقف إلَّا إذا وقعت في القافية أو في الفواصل كما في هذه الآية لمراعاة ﴿**مِنْ وَالٍ**﴾ (الرَّعد: من الآية 11)، ﴿**وَالْآصَالِ**﴾ (الرَّعد: من الآية 15)"، واحتج له برأي سيبويه فأضاف قائلا: "وقد ذكر سيبويه أنَّ ما يختار إثباته من الياءات والواوات يحذف في الفواصل والقوافي، والإثبات أقيس والحذف عربيٌّ كثير"[4].

---

[1]- نفسه، (297/26).

[2]- نفسه، (36/29).

[3]- ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (154/27).

[4]- نفسه، (98/13-99).

**الأسلوب الثَّالث: الإقحام والزِّيادة**

المراد بالإقحام والزِّيادة في القرآن الكريم- في إطلاق النَّحويّين- الزَّائدُ من جهة الإعراب لا من جهة المعنى، فلا وقوع لمهملٍ في القرآن الكريم[1]، وإنَّما هي زيادة معانٍ وفوائد. وقد تكون الزِّيادة في الحروف كما تكون في الكلمات، وأكثر ما يستعمل ابن عاشور مصطلح الإقحام بمعنى إدخال كلمة وسط الكلام، وأمَّا الزِّيادة فللحروف.

**أ- إقحام كلمة:**

أحيانا تقحم العرب في الكلام لفظا زائدا، كما في قول لبيد: *إلى الحول ثُمَّ اسم السَّلام عليكما*، يعني: ثُمَّ السَّلام عليكما. وقول بشَّار:

وكذاك كان أبوك يؤثر بالهُنى *** ويظلُّ في لفظ النَّدى يتردَّد

وممَّا جاء من الإقحام في القرآن الكريم: إقحام كلمة (تسمية) في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى**﴾ (النَّجم:27)، والتَّسمية مطلقة هنا على التَّوصيف المتمثِّل في زعم المشركين أنّ الملائكة إناث، ونظائرها في القرآن كثيرة منها: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾ (الأعلى:1)، و﴿**عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا**﴾ (الإنسان:18)، أي توصف بهذا الوصف، وقد كان الدَّاعي إلى هذا الإقحام رعاية الفواصل ليأخذ لفظ (الأنثى) موقع الفاصلة، فيتَّسق مع بقية فواصل السُّورة.[2]

**ب- زيادة حرف:**

ومن ذلك زيادة ألف الإطلاق نحو قوله تعالى: ﴿**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾ (الأحزاب: من الآية 10)، فالألف الملحقة بالنُّون في كلمة ﴿**الظُّنُونَا**﴾، زيدت في النُّطق وكتبت بها "للرِّعاية على الفواصل في الوقوف، لأنَّ الفواصل مثل الأسجاع تعتبر موقوفا عليها لأنَّ المتكلِّم أرادها كذلك. فهذه السُّورة بنيت على فاصلة الألف مثل القصائد المقصورة، كما زيدت الألف في قوله تعالى: ﴿**وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا**﴾ (الأحزاب: من الآية 66)، وقوله: ﴿**فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**﴾ (الأحزاب: من الآية 67)"[3].

[1]- ينظر : الزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن، ص666-676.

[2]- ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (150/1)، (115/27).

[3]- نفسه، (282/21).

الملاحَظ في جميع الأساليب السَّابقة أنَّ رعاية الفاصلة من خلالها قائم على التَّغيير في تركيب الجملة؛ بالتَّقديم والتَّأخير، أو بالزِّيادة والإقحام، أو بالإيجاز (بالحذف أو القصر)، وذلك التَّغيير هو ما يعرف بالعدول التَّركيبيّ، أي العدول الَّذي يكون على مستوى نظم الجُمل.

ومن أساليب رعاية الفاصلة الَّتي تندرج تحت هذا الطَّريق (طريق العدول التَّركيبيّ): العدولُ عن مقتضى الظَّاهر في تشاكل الكلام في العطف. وهو الأسلوب الرَّابع من أساليب رعاية الفاصلة.

**الأسلوب الرَّابع: العدولُ عن مقتضى الظَّاهر في تشاكل الكلام في العطف**

مِن مقتضى الظَّاهر في الكلام أن يتشاكل المعطوف والمعطوف عليه في هيئة التَّركيب، إلَّا أنَّ من أفانين القرآن البلاغيَّة أن يُعدل عن ذلك المقتضى إلى ما هو أحسن منه عبارةً وأدلُّ منه على المعنى، ومن أمثلته ما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة: من الآية 34)، فكلُّ قارئ يمكن أن يلاحظ عدول القرآن عن مقتضى الظَّاهر الَّذي يستدعي أن يقول: (وكفر) كما قال: ﴿**أَبَى وَاسْتَكْبَرَ**﴾، إلَّا أنَّه عدل عنه إلى قوله: ﴿**وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ فما سرُّ هذا العدول؟

بنى ابن عاشور الجواب عن ذلك على بيان سرِّ انتخاب القرآن للنَّاسخ وخبره؛ فأمَّا اختيار النَّاسخ (كان) فلدلالتها على رسوخ معنى الخبر في اسمها، أي أنَّ كفْر إبليس كان كفرا عميقا.

وأمَّا اختيار ﴿**مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ الدَّالِّ على الجمع والمشاركة خبرا لـ كان بدل (كافرا) الَّذي يفيد الانفراد، بالرَّغم من أنَّ إبليس كان وحيدا في كفره ولم يكن معه جماعة! فللدِّلالة من طريق الكناية على شدَّة تمكُّن الوصف من الموصوف، إذ المشاركة توحي بسداد الفعل فيزداد التَّمسُّك به والاطمئنان إليه. ثُمَّ يضيف رافعا اللِّثام عن غرض آخر من هذا العدول عن مقتضى الظَّاهر والمتمثل في مراعاة مقتضى حروف الفاصلة.[1]

فاقترن برعاية الفاصلة ههنا غرض آخر وهو زيادة معانٍ (الرُّسوخ في الكفر وشدَّة تمكُّنه منه) من خلال خصوصيَّة تراكيب معيَّنة.

[1]- ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (1/426-427).

ومن أمثلته أيضا تغيير طريق التَّعريف في قوله تعالى: ﴿**فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ (العنكبوت: من الآية 3)، ففي هذه الآية عدول عن مقتضى الظَّاهر في طريق تعريف المتَّصفين بالكذب؛ فمقتضى الظَّاهر أن يقول: (الَّذين كذبوا) جريا على طريق تعريف المتَّصفين بصدق الإيمان في قوله ﴿**الَّذِينَ صَدَقُوا**﴾، فعدل إلى طريق تعريف آخر وهو التَّعريف باللَّام بقوله: ﴿**الْكَاذِبِينَ**﴾، فلماذا هذا العدول؟

يفسِّر ابن عاشور هذا العدول باختلاف إفادة طريقي التَّعريف؛ فتحقُّق الوصف وحدثانه يفيده استعمال الموصول والصِّلة الماضويَّة، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ صَدَقُوا**﴾، بينما الَّذي يفيد أنَّ الوصف معهود من المذكور وأنَّه يتميَّز به فهو التَّعريف باللَّام وصيغة اسم الفاعل، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**الْكَاذِبِينَ**﴾؛ فغرض العدول ههنا في نظر ابن عاشور معنويٌّ وهو إفادة معنى خاصٍّ، ليقرنه بعد ذلك بغرضين آخرين؛ أحدهما لغويٌّ أسلوبيٌّ وهو التَّفنُّن في الكلام، والآخر راجع إلى حسن النَّظم وهو رعاية الفاصلة.[1]

وخلاصة ما سبق: أنَّ القرآن الكريم، رعايةً للفاصلة، سلكَ طريق العدول التَّركيبيّ، متَّبعا في سلوكه أساليب مختلفة، أحصيت منها من خلال تفسير التَّحرير والتَّنوير أربعةً وهي: التَّقديم والتَّأخير، الزِّيادة والإقحام، الإيجاز، والعدولُ عن مقتضى الظَّاهر في تشاكل الكلام في العطف.

وفي أثناء البحث، وبعد الوقوف على طريق العدول التَّركيبيّ الرَّاجع إلى طريقة نظم الكلام، تبيَّن أنَّ أساليب رعاية الفاصلة المتبقِّية مرجعها إلى طريقين آخرين من طرق العدول، وهما: العدول اللَّفظيُّ الرَّاجع إلى اختيار الألفاظ، والعدول الصَّرفيُّ الرَّاجع إلى التَّغيير في الصِّيغ. وبيان ذلك فيما يأتي.

**الأسلوب الخامس: العدول اللَّفظيُّ**

يرجع العدول اللَّفظيُّ- كما سبقت الإشارة إليه- إلى اختيار الألفاظ، إذ ينصرف المتكلِّم عن لفظٍ إلى آخر. وبالتَّأمُّل في ما ذكره ابن عاشور في تفسيره من هذا الأسلوب يمكن أن نستخلص ثلاثة أنواع لهذا العدول، وتنوُّعها بحسب تنوُّع المعدول عنه، وهي المتمثِّلة في ما يلي:

[1]- ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير ، (206/20).

**أ- العدول عن الأصل:**

ويخصُّه ابن عاشور بمصطلح العدول- هكذا مجرَّدا عن الجارِّ والمجرور- فحيثما ذكر العدول مجرَّدا فإنَّه يريد به هذا النَّوع. ومن أمثلة العدول عن الأصل في الألفاظ رعايةً للفاصلة ما جاء في قوله تعالى: ﴿**فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا**﴾ (مريم: من الآية 26)، حيث يرى ابن عاشور أنَّه لا يخطر ببال المخاطبين بهذه المقالة أنَّ مريم تُكلِّم الملائكة حتَّى تحترز عن ذلك بقولها ﴿**إِنْسِيًّا**﴾، فالمعنى أنَّها لن تكلِّم أحدا، ورعايةً لفاصلة الياء عدَل عن (أحدا) إلى ﴿**إِنْسِيًّا**﴾[1].

والظَّاهر في هذا المثال أنَّ هناك غرضا آخر مقترنا برعاية الفاصلة، وهو تجنُّب تكرار لفظ (أحدا) الوارد قبلها في الآية نفسها في قوله تعالى: ﴿**فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا**﴾ (مريم: من الآية 26).

**ب- العدول عن مقتضى الظَّاهر في تناسب الكلام:**

من مقتضى الظَّاهر في الكلام أن تتناسب الأسباب مع المسبَّبات والمقدِّمات مع النَّتائج، إلَّا أنَّ من أفانين القرآن البلاغيَّة أن يعدل عن مقتضى الظَّاهر في التَّناسب إلى ما هو أشدُّ ملاءمة وأدلُّ على معانٍ زائدة.

ومن الأمثلة على هذا النَّوع ممَّا ذكره ابن عاشور في تفسيره مقترنا برعاية الفاصلة ما جاء في قوله تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ (النَّصر:3)، فمقتضى الظَّاهر أن يقال: (إنَّه كان غفَّارا) ليناسب قوله: ﴿**وَاسْتَغْفِرْهُ**﴾، لكنَّه عدل عن ذلك، وأرجعه ابن عاشور إلى غرضين:

**الأوَّل**: التَّلطُّف مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، بالإيماء إلى أنَّ أمْره بالاستغفار ليس مقتضيا إثبات ذنب، وإنَّما هو من باب الإرشاد إلى مقام التَّأدُّب مع الله تعالى.

**الثَّاني:** رعاية الفاصلة، لملاءمة ﴿**تَوَّابًا**﴾ لإقامة الفاصلة مع فاصلة ﴿**أَفْوَاجًا**﴾ (النَّصر: من الآية2)، أكثر من كلمة (غفَّارا)، لاشتراك حرفي الجيم والباء في الوصف بالشِّدَّة، بخلاف الرَّاء الَّذي صفته بين الشِّدَّة والرِّخوة.[2]

---

[1]- ينظر نفسه، (94/16).

[2]- ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (597/30-598).

فمن الأغراض المقترنة برعاية الفاصلة من خلال العدول عن مقتضى الظَّاهر في اختيار الألفاظ التَّلطُّف مع النَّبيّ ﷺ.

**ج- العدول عن ممكن إلى ممكن:**

ويخصُّه ابن عاشور بمصطلح الإيثار؛ فحيثما ذَكر إيثار لفظٍ فإنَّه يعني به الاختيار من بين ألفاظٍ متعدِّدة يمكن أن تؤدِّي المعنى نفسه؛ ذلك أنَّ ثراء اللُّغة العربيَّة بالألفاظ يتيح للمتكلِّم بها فسحةً في اختيار ما يشاء منها للتَّعبير عن المعنى المراد. فليس الأمر ههنا عدولا عن الأصل ولا عن الأولى أو الاستحقاق، وإنَّما هو ما يمكن أن يقال عنه أو يصطلح عليه بـ: العدول عن ممكن إلى ممكن آخر.

فالفرق بين العدول عن لفظ إلى آخر وإيثار لفظ دون غيره، في استعمال ابن عاشور، أنَّ في الأوَّل تكون أولويةٌ للَفظٍ على حسابِ آخرٍ لاعتبارٍ ما، كأن يكون أصلا في كلام العرب استعمالُه في مثل ذلك الموضع، فلا تراعى تلك الأولوية؛ فيُعدَل عن اللَّفظ الأَوْلى إلى غيره لغرض ما، في حين أنَّ إيثار لفظ دون غيره يكون فيما لم تظهر فيه أولويةٌ، وفي المترادفات والمتقاربات.

هذا وإنَّ من دواعي إيثار كلمةٍ دون غيرها في القرآن الكريم، أو إيثار كلمةٍ على أخرى مرادفةٍ لها أو قريبةٍ منها: رعايةُ الفاصلة، فيقع الاختيار منها على ما يناسب الفواصل.

ومن الأمثلة على إيثار كلمة دون غيرها رعايةً للفاصلة: إيثار كلمة (شهر) في قوله تعالى: ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾ (القدر:3)، إذ يرى ابن عاشور أنَّ إيثارها تمييزًا لعدد الكثرة ﴿**أَلْفِ**﴾ دون غيرها من الكلمات المعبّرة عن المُدَد إنَّما هو للرَّعي على الفاصلة الواردة بحرف الرَّاء[1]. وأيضًا إيثار (ثمود) في قوله تعالى: ﴿**فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ**﴾ (البروج:18) عن بقيَّة الأمم الَّتي كذَّبت الرُّسل من العرب ومن غيرهم حصل رعايةً للفاصلة القائمة على حرف الدَّال من قوله: ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**﴾ (البروج:12)[2].

[1]- ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (459/30).

[2]- ينظر: نفسه، (251/30).

ومن أمثلة إيثار كلمةٍ على مرادفتها رعايةً للفاصلة ما حصل مع كلمتي الرُّشْد والرَّشَد؛ حيث أوثرت كلُّ واحدة منهما في مواضعَ رعايةً للفاصلة، قال ابن عاشور في تأويل قوله تعالى: ﴿**إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**﴾ (الكهف: 10)، "والرَّشَد –بفتحتين-: الخير وإصابة الحقِّ والنَّفع والصَّلاح، وقد تكرَّر في سورة الجنّ باختلاف هذه المعاني.

والرُّشْد –بضمّ الرَّاء وسكون الشِّين- مرادف الرَّشَد، وغلب في حسن تدبير المال. ولم يُقرأ هذا اللَّفظ هنا في القراءات المشهورة إلَّا بفتح الرَّاء بخلاف قوله تعالى: ﴿**قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ في البقرة (البقرة: من الآية 256)، وقوله: ﴿**فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا**﴾ في سورة النِّساء (النِّساء: من الآية 6)، فلم يُقرأ فيهما إلَّا بضمّ الرَّاء.

ووجه إيثار مفتوح الرَّاء والشِّين في هذه السُّورة، في هذا الموضع، وفي قوله الآتي: ﴿**وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا**﴾ (الكهف: من الآية 24): أنَّ تحريك الحرفين فيهما أنسب بالكلمات الواقعة في قرائن الفواصل؛ ألا ترى أنَّ الجمهور قرأوا قوله في هذه السُّورة: ﴿**عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ (الكهف: من الآية 66) بضمّ الرَّاء لأنَّه أنسب بالقرائن المجاورة له وهي ﴿**مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾ (الكهف: من الآية 65)، ﴿**مَعِيَ صَبْرًا**﴾ (الكهف: من الآية 67)، ﴿**مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**﴾ (الكهف: من الآية 68)، ﴿**وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾ (الكهف: من الآية 69) إلى آخره. ولم يقرأه هنالك بفتح الرَّاء والشِّين إلَّا أبو عمرو ويعقوب"[1].

وقد يقترن غرض رعاية الفاصلة من خلال إيثار كلمة دون غيرها بأغراض أخرى، منها:

**1- زيادة معنى:**

ومن ذلك إيثار كلمة (المرعى) في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى**﴾ (الأعلى:4)، دون لفظ النَّبات، حيث ذكر ابن عاشور أنَّه: "لما يشعر به مادَّة الرَّعي من نفع الأنعام به ونفعها للنَّاس الَّذين يتَّخذونها مع رعاية الفاصلة"[2].

[1]- ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير ، (267/15).

[2]- ينظر: نفسه، (278/30).

ومن ذلك أيضا إيثار لفظ قسورة في قوله تعالى: ﴿**فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)**﴾ (المدثّر:49-51)، حيث ذكر ابن عاشور أنَّ القسورة إمَّا بمعنى الرُّماة، أو بمعنى الأسد، وتفضيل لفظ قسورة عليهما لصلاحيَّته للتَّشبيه بهما جميعا، فكأنَّه لفظ مشترك، يصلح لكلِّ واحد منهما. كما حصل بإيثاره أيضا رعاية الفاصلة.[1]

**2- إحياء ما تنوسي استعماله من الألفاظ:**

ومن ذلك إيثار كلمة (الأبّ) في قوله تعالى: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ (عبس:31)، وهي الَّتي خفي مدلولها على أبي بكر وعمر ﷺ رغم أنَّهما من أقحاح العرب وخلَّصها، وردَّ ابن عاشور خفاء مدلولها عليهما إلى ثلاثة أسباب، نكتفي بذكر ما له علاقة بالموضوع، وهو أنَّ "هذا اللَّفظ كان قد تنوسي من استعمالهم فأحياه القرآن لرعاية الفاصلة، فإنَّ الكلمة قد تشتهر في بعض القبائل أو في بعض الأزمان وتنسى في بعضها"[2]. فاجتمع هنا غرضان: إحياء ما تنوسي استعماله من الألفاظ ورعاية الفاصلة.

**3- مقاربة اللُّغة الأصل:**

ومن ذلك إيثار لفظ (سراجًا) في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)**﴾ (نوح:15-16)، قال ابن عاشور: "ولم يخبر عن الشَّمس بالضِّياء كما في آية سورة يونس ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً**﴾ (يونس: من الآية 5)، والمعنى واحدٌ وهو الإضاءة، فلعلَّ إيثار السِّراج هنا لمقاربة تعبير نوح في لغته، مع ما فيه من الرِّعاية على الفاصلة، لأنَّ الفواصل الَّتي قبلها جاءت على حروف صحيحة، ولو قيل: ضياء لصارت الفاصلة همزة والهمزة قريبة من حروف العلَّة فيثقل الوقف عليها"[3].

[1]- ينظر: نفسه، (330/29).

[2]- ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير ، (133/30).

[3]- نفسه، (203/29).

**4- إفادة تاريخيَّة:**

ومن ذلك إيثار لفظ (شرقيًا) في وصف المكان الَّذي انتبذته مريم ابنة عمران لمَّا حملت بعيسى عليه السَّلام، دون تعيينه، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾ (مريم:16). وابن عاشور يوظِّف هنا القاعدة المشهورة في عدم الفائدة من تعيين المبهمات الَّتي منها اسم المكان في هذا الموضع، حيث جاء نكرة مبهما لا غرض يتعلَّق بتعيينه، ثُمَّ انتقل إلى الحديث عن إيثار وصفه فقال: "وأمَّا التَّصدِّي لوصفه بأنَّه شرقيٌّ فللتَّنبيه على أصل اتِّخاذ النَّصارى الشَّرق قبلة لصلواتهم، إذ كان حمل مريم بعيسى في مكان من جهة مشرق الشَّمس. كما قال ابن عبَّاس: «إنِّي لأعلم خلق الله لأيِّ شيء اتَّخذت النَّصارى الشَّرق قبلة، لقوله تعالى: ﴿**مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾»، أي أنَّ ذلك الاستقبال ليس بأمر من الله تعالى. فذِكر كون المكان شرقيًّا نكتة بديعة من تاريخ الشَّرائع، مع ما فيه من مؤاخاة الفواصل"[1].

فملخَّص القول في العدول اللَّفظيِّ أنَّه على ثلاثة أنواع: عدول عن الأصل، وعدول عن مقتضى الظَّاهر، وإيثار.

وأمَّا العدول الصَّرفيُّ الَّذي هو الطَّريق الثَّالث القسيم للعدول التَّركيبيِّ والعدول اللَّفظيِّ، فيمثِّل الأسلوب السَّادس الأخير من أساليب رعاية الفاصلة الَّتي وقفت عليها في تفسير التَّحرير والتَّنوير، وبيانه فيما يلي.

**الأسلوب السَّادس: العدول الصَّرفيُّ**

مرجع **العدول الصَّرفيِّ**– كما سبقت الإشارة إليه- هو التَّغيير في الصِّيغ الصَّرفيَّة بين أوَّل الكلام وآخره، أو لاحق الكلام وسابقه، إذ الأصل في الكلام تناسب ألفاظه وتشاكل أجزائه.

ومن أغراض العدول الصَّرفيِّ في القرآن الكريم رعايةُ الفاصلة، ومن صور العدول الصَّرفيِّ رعايةً للفاصلة، الَّتي ذكرها ابن عاشور في تفسيره، ما يلي:

[1]- نفسه، (80/16).

**أ- العدول عن المصدر إلى الفعل:**

ويفهم من هذا أنَّ سياق الكلام يقتضي استخدام المصدر، لكن يعدل القرآن الكريم عن ذلك إلى استعمال الفعل، لغرض أو لعدَّة أغراض، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (يونس:41)، حيث يقتضي قوله تعالى: ﴿**لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ**﴾ أن يقول بعده (أنتم بريئون من عملي وأنا بريء من عملكم)، لكنَّه ترك ذلك إلى توظيف الفعل بدلا عن المصدر فقال: ﴿**أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾، وذلك لأغراض جلَّاها ابن عاشور، تعكس تفرُّد فصاحة القرآن ودقَّتها، نجملها في الآتي[1]:

**أوَّلا:** الدَّلالة على التَّبرُّؤ من كلِّ عمل يحدث في الحاضر أو القابل بخلاف العمل المنقضي.

**ثانيا:** الاحتراس من توهُّم كون المراد عمل خاصٌّ.

**ثالثا:** اجتناب التِّكرار.

**رابعا:** سلاسة النَّظم بما في الاسم الموصول من المدِّ المهيِّئ للوقف على ما بعده، وبما في صلة الموصول الثَّاني من المدِّ أيضا.

**خامسا:** رعي الفاصلة.

فاجتمع من الأغراض ههنا خمسة: رعاية الفاصلة، وإفادة معنى خاصٍّ، والاحتراس مما قد يُتوهَّم، وتجنُّب التِّكرار، وسلاسة النَّظم.

**ب- العدول عن الفعل إلى اسم الفاعل:**

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (الأحقاف: من الآية 15)، قال ابن عاشور: "وقال: ﴿**مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ دون أن يقول: وأسلمت كما قال: ﴿**تُبْتُ إِلَيْكَ**﴾، لما يؤذن به اسم الفاعل من التَّلبُّس بمعنى الفعل في الحال وهو التَّجدُّد، لأنَّ الأعمال متجدِّدة متكرِّرة، وأمَّا الإيمان فإنَّما يحصل دفعة فيستقرُّ لأنَّه اعتقاد، وفيه الرَّعي على الفاصلة"[2]. فاقترن مع الرَّعي على الفاصلة غرض آخر وهو زيادة معنى.

[1]- ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (176/11).

[2]- ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (34/26).

**ج- العدول عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع:**

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾ (البقرة:87)، قال ابن عاشور: "وجاء في ﴿**تَقْتُلُونَ**﴾ بالمضارع عوضا عن الماضي لاستحضار الحالة الفظيعة وهي حالة قتلهم رسلهم كقوله: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ**﴾ (فاطر: من الآية 9) مع ما في صيغة ﴿**تَقْتُلُونَ**﴾ من مراعاة الفواصل، فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النَّظم"[1]. فذكر ههنا غرضين: رعاية الفاصلة، واستحضار حالة الفعل.

**د- العدول عن الجملة الفعليَّة إلى الجملة الاسميَّة:**

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ**﴾ (الأعراف:193)، حيث عدل عن الجملة الفعليَّة بأن يقول: (أم صَمَتُّم) في معادل التَّسوية بالجملة الفعليَّة الَّتي قبلها وهي قوله: ﴿**أَدَعَوْتُمُوهُمْ**﴾، فعدل إلى جملة اسميَّة وهي قوله: ﴿**أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ**﴾، وأرجع ابن عاشور ذلك -زيادة على مقتضى الفصاحة برعاية الفاصلة- إلى مقتضى الحال البلاغيّ؛ حيث إنَّ الجملة الاسميَّة تفيد الثُّبوت على الوصف خلافا للفعليَّة الَّتي تفيد التَّجدُّد، والمعنى: "سواء عليكم أدعوتموهم دعوة متجدِّدة أم لازمتم الصَّمت"[2]. فالعدول ههنا عن الجملة الفعليَّة إلى الاسميَّة عند ابن عاشور له غرضان: أحدهما من مقتضى الفصاحة وهو رعاية الفاصلة، والآخر من مقتضى البلاغة وهو إفادة معنى خاصٍّ.

**هـ- العدول في صيغ الإفراد والتَّثنية والجمع:**

ذكر ابن عاشور من هذا النَّوع العدولَ عن الإفراد إلى الجمع، والعدول عن الجمع إلى الإفراد أو التَّثنية، وذلك على النَّحو الآتي:

---

[1]- نفسه، (598/1).

[2]- ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير ، (219/9-220).

**1- العدول عن الإفراد إلى الجمع:**

ومن أمثلته ما جاء في قوله تعالى: ﴿**مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (الأعراف: 178)، قال ابن عاشور: "وجُمِع الوصف في الثَّاني مراعاة لمعنى (مَن) الشَّرطيَّة، وإنَّما روعي معنى (مَن) الثَّانية دون الأولى لرعاية الفاصلة ولتُبيّن أن ليس المراد ب (مَن) الأولى مفردا"[1]. فمن الأغراض المقترنة بغرض رعاية الفاصلة من خلال أسلوب العدول الاحتراسُ.

وقد يقتصر الغرض من العدول عن الإفراد إلى الجمع على رعاية الفاصلة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ (لقمان: من الآية 19)، حيث عدل عن لفظ (الحمار) وهو مفرد إلى جمعه ﴿**الْحَمِيرِ**﴾ رغم أنَّ (صوت) مفرد ويناسبه الإفراد، فما النُّكتة الكامنة وراء ذلك؟

بحث ابن عاشور هذه المسألة وانتهى إلى أنَّ لام الجنس أبطلت من (الحمير) معنى الجمعيَّة، فسوَّت بين مفرده وجمعه، فإذا كان المعنى لا يتغيَّر بالعدول، فهذا يعني أنَّه لا يوجد غرض معنويٌّ، فبقي الغرض الشَّكليُّ الصَّوتيُّ الجماليُّ وهو رعاية الفاصلة. ولمَّا لم تكن فواصل القرآن مبنيَّة على تماثل الحروف وإنَّما تعتمد كثيرا على الحركات والمدود والصِّيغ، وكانت الفواصل المتقدِّمة (حميد، عظيم، المصير، خبير، الأمور، فخور) مبنيَّة على الياء والواو، فالأنسب لها لفظ (حمير) دون (حمار).[2]

**2- العدول عن الجمع إلى الإفراد:**

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ (القمر:45)، قال ابن عاشور: "وأُفرد الدُّبر، والمراد الجمع لأنَّه جنس يصدق بالمتعدِّد، أي يولّي كل أحد منهم دبره، وذلك لرعاية الفاصلة ومزاوجة القرائن، على أنَّ انهزام الجمع انهزامة واحدة، ولذلك الجيش جهة تولٍّ واحدة"[3]. فاقترن غرض رعاية الفاصلة بغرض آخر وهو مزاوجة القرائن.

[1]- ينظر: نفسه، (181/9).

[2]- ينظر: نفسه، (168/21-169).

[3]- ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير ، (213/27).

والَّذي يبدو هنا أنَّ العدول حصل في لفظ (يولُّون) لا في لفظ (الدُّبر)، حيث عُدل به عن الإفراد إلى الجمع؛ فالجملة الأولى ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ**﴾ تدلُّ لفظا على الإفراد، ومفعول الجملة المعطوفة وهو ﴿**الدُّبُرَ**﴾ يدلُّ كذلك على الإفراد، والخارج عن السِّياق هو فعل الجملة المعطوفة ﴿**يُوَلُّونَ**﴾، ولعلَّ العدول فيه لموافقة الكثرة الَّتي يدلُّ عليها لفظ ﴿**الْجَمْعُ**﴾ وليس رعايةً للفاصلة؛ إذ كان من الممكن أن يقال: سيهزم الجمع ويولِّي الدُّبر، ولا عدول فيه، والفاصلة معه مرعيَّةٌ.

**3- العدول عن الجمع إلى التَّثنية:**

ومن ذلك تثنية فواكه الجنَّة في قوله تعالى: ﴿**فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ**﴾ (الرَّحمن:52)، قال ابن عاشور: "وأمَّا تثنية ﴿**زَوْجَانِ**﴾ فإنَّ الزَّوج هنا النَّوع، وأنواع فواكه الجنَّة كثيرة وليس لكلِّ فاكهة نوعان: فإمَّا أن نجعل التَّثنية بمعنى الجمع ونجعل إيثار صيغة التَّثنية لمراعاة الفاصلة ولأجل المزاوجة مع نظائرها من قوله : ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ (الرَّحمن:46) إلى هنا. وإمَّا أن نجعل تثنية ﴿**زَوْجَانِ**﴾ لكون الفواكه بعضها يؤكل رطبا وبعضها يؤكل يابسا مثل الرُّطب والتَّمر والعنب والزَّبيب، وأخصُّ الجوز واللَّوز وجافُّهما"[1]. فاقترن غرض رعاية الفاصلة هنا بغرض المزاوجة وهي من المحسِّنات البديعيَّة المعنويَّة.

**و- إيثار الإضمار على الإظهار والتَّذكير على التَّأنيث:**

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣)**﴾ (عبس: 11-13)، فالضَّمير الظَّاهر في قوله: ﴿**ذَكَرَهُ**﴾ إمَّا أن يكون عائدا إلى ﴿**تَذْكِرَةٌ**﴾ باعتبار أنَّها تصدق على القرآن، ويكون المعنى: "فمن شاء ذكر القرآن وعمل به"، وإمَّا أن يعود إلى الله تعالى على عادة القرآن في مرجع ضمير الغيبة، فيكون المعنى: "فمن شاء ذكر الله وتوخَّى مرضاته"، والغرض من الإضمار والتَّذكير بدل الإظهار والتَّأنيث مراعاةُ الفواصل وهي: تذكرهْ، مطهَّرهْ، سفرهْ، بررهْ.[2]

[1]- ينظر نفسه، (266/27).

[2]- ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير ، (115/30-116).

**خاتمة:**

يمكن تلخيص أهمِّ نتائج البحث في النِّقاط الآتية:

- ✓ عناية ابن عاشور في تفسيره بمبحث رعاية الفاصلة، حيث اهتمَّ بالكشف عن أساليبها وعن الأغراض المقترنة بها.
- ✓ تفنُّن القرآن الكريم في أساليبه، وإبداعه في تحقيق أغراضه، والانسجام فيه بين حسن العبارة وثراء المعنى من خلال فواصله.
- ✓ سلك القرآن الكريم طريق العدول لرعاية الفاصلة، وبأساليب متعدِّدة.
- ✓ تشعُّب طريق العدول إلى: عدول لفظيٍّ، وعدول صرفيٍّ، وعدول تركيبيٍّ، وهذا الأخير متشعِّبٌ إلى: عدول نحويٍّ، وعدول سِياقيٍّ، وعدول عن التَّرتيب الوجوديِّ.
- ✓ تنوُّع العدول بحسب المعدول عنه إلى: عدول عن الأصل، عدول عن مقتضى الظَّاهر، وعدول عن الممكن.
- ✓ أساليب رعاية الفاصلة- الَّتي ذكرها ابن عاشور في تفسيره- ستَّة، وهي: التَّقديم والتَّأخير، والإيجاز، والإقحام والزِّيادة، والعدولُ عن مقتضى الظَّاهر في تشاكل الكلام في العطف، والعدول اللَّفظيُّ، والعدول الصَّرفيُّ.
- ✓ الأغراض المقترنة برعاية الفاصلة- الَّتي ذكرها ابن عاشور في تفسيره- واحد وثلاثون غرضًا، وهي موزَّعة على الأنواع الآتية:

- أغراض لغويَّة: وهي: موافقة وجه النَّحو، مقاربة اللُّغة الأصل، موافقة المحكيِّ من الكلام، إحياء ما تنوسي استعماله من الألفاظ، التَّفنُّن في الكلام، الجناس، تجنُّب التِّكرار، التَّخفيف، سلاسة النَّظم.

- أغراض معنويَّة: وهي: تنزيه الله تعالى، التَّلطُّف مع النَّبيِّ ﷺ، الثَّناء على طائفة من النَّاس وتحذيرهم والتَّعريض بطائفة أخرى، الاهتمام، التَّنويه، التَّنبيه، الامتنان، التَّعجيب، الإيماء إلى علاقةٍ بين أمرين، إفادة معنى خاصٍّ، زيادة معنى أو معان، الإيجاز، الاحتراس، إفادة تاريخيَّة، استحضار حالة الفعل، مراعاة التَّدرُّج في القوَّة والضُّعف،

زيادة الاستحضار والتَّشويق، تقوِّي الخبر، التَّعجيل بالأمر المقدَّم، مراعاة النَّظير، التَّورية، المزاوجة (مزاوجة القرائن).

- ✓ قد يقترن برعاية الفاصلة –في تفسير ابن عاشور- غرضٌ واحد، أو غرضان، أو ثلاثة، وأحيانا أربعة أغراض، وأحيانا يذكر ابن عاشور أنَّها أغراضٌ كثيرة فيقتصر على ذكر بعضها، وأحيانا يقتصر على غرض رعاية الفاصلة مجرَّدا عن الاقتران بأغراض أخرى.
- ✓ إذا اقتصر ابن عاشور على غرض رعاية الفاصلة مجرَّدا عن الاقتران بأغراض أخرى، فإنَّه أحيانا ينبِّه إلى أنَّ مجرَّد رعاية الفاصلة وجهٌ من وجوه إعجاز القرآن في فصاحته.
- ✓ لا تقلُّ عناية القرآن الكريم بالقالب الشَّكليِّ عن مقدار عنايته بالجوهر والمضمون، إذ يعدُّ القالب الوعاء الحامل للمعاني، فكلاهما يستمدُّ الحسن من الآخر.

**قائمة المصادروالمراجع:**


- أبو الحسن عليُّ بن عيسى الرُّمَّانيُّ، كتاب النُّكت في إعجاز القرآن، عنى بتصحيحه: الدُّكتور عبد العليم، دهلي: مكتبة الجامعة الملية الإسلاميَّة، 1934.
- أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريَّا، معجم مقاييس اللُّغة، تح: عبد السَّلام محمَّد هارون، ط:2، دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، 1399ه/1979م.
- أبو الفضل، جمال الدِّين محمَّد بن مكرم ابن منظور الإفريقيُّ المصريُّ، لسان العرب، بيروت: دار صادر، (د ط ت).
- أبو بكر، عبد القاهر بن عبد الرَّحمن بن محمَّد الجرجانيُّ النَّحويُّ، كتاب دلائل الإعجاز، قرأه وعلَّق عليه: أبو فهر محمود محمَّد شاكر، ط:5، القاهرة: مكتبة الخانجي، 2004م.
- أبو بكر، محمَّد بن الطَّيِّب الباقلَّانيُّ، إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، ذخائر العرب (12)، ط:3، القاهرة- مصر: دار المعارف، (د ت).
- أبو عمرو الدَّاني الأندلسيُّ، البيان في عدِّ آي القرآن، تح: غانم قدُّوري الحمد، ط:1، الكويت: منشورات مركز المخطوطات والتُّراث والوثائق(42)، قسم القرآن الكريم وعلومه، 1414ه/ 1994م.
- بدر الدِّين محمَّد بن عبد الله الزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن، تح: أبو الفضل أحمد عليُّ الدِّمياطيُّ، القاهرة: دار الحديث، 1427ه/2006م.
- ضياء الدِّين بن الأثير، المثل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط:2، الفجالة-القاهرة: دار نهضة مصر، (د ت).
- محمَّد الطَّاهر ابن عاشور، تفسير التَّحرير والتَّنوير، تونس: الدَّار التُّونسيَّة للنَّشر، 1984م.
- محمَّد علي التَّهانويُّ، موسوعة كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، طبع ضمن: سلسلة موسوعات المصطلحات العربيَّة والإسلاميَّة، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، تح: علي دحروج، نقل النَّصَّ الفارسيَّ إلى العربيَّة: عبد الله الخالدي، التَّرجمة الأجنبيَّة: جورج زيناتي، ط:1، بيروت-لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، 1996م.